

عزة العلماء

علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني

يَقُولُونَ لِي فِيكَ اتِّبَاضٌ وَإِنَّمَا . . . رَأَوْا رَجُلًا عَنِ مَوْقِفِ الذَّلِّ أَحْجَمًا

أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ . . . وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَكْرَمًا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِذْ كُنْتُ كَلَمًا . . . بَدَأَ طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سَلْمًا

وَمَا زِلْتُ مُنْحَازًا بَعْرُضِي جَانِبًا . . . عَنِ الذَّلِّ أَعْتَدْتُ الصِّيَانَةَ مَعْنَمًا

إِذَا قِيلَ: هَذَا مَنَهْلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى . . . وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمًّا

أَنْزَهَهَا عَنِ بَعْضِ مَا لَا يَشِينُهَا . . . مَخَافَةَ أَقْوَالِ الْعِدَا فِيمَ أَوْ لِمَا؟

فَأُصْبِحُ عَنِ عَيْبِ اللَّيْمِ مُسَلِّمًا . . . وَقَدْ رَحْتُ فِي نَفْسِ الْكَرِيمِ مَعْظَمًا

وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الْأَمْرُ لَمْ أَبْتُ . . . أَقْلَبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَدَمِّمًا

وَلَكِنَّهُ إِذَا جَاءَ عَفَوْا قَبْلَتَهُ . . . وَإِنْ مَالٌ لَمْ أَتَّبِعْهُ هَلَّا وَلَيْتَمَا

وَأَقْبَضُ خَطْوِي عَنِ حِظْوِ كَثِيرَةٍ . . . إِذَا لَمْ أَنْلِهَا وَافَرَ الْعِرْضَ مُكْرَمًا

وَأَكْرَمُ نَفْسِي أَنْ أَضَاحِكَ عَابِسًا . . . وَأَنْ أَتَلَقَّى بِالْمَدِيحِ مُدَمِّمًا

وَكَمْ طَالِبٍ رَقِيَّ بِنُعْمَاهُ لَمْ يَصِلْ . . . إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الرَّئِيسَ الْمَعْظَمًا

وَكَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ عَلَى الْحُرِّ نِقْمَةً . . . وَكَمْ مَغْنَمٍ يَعْتَدُّهُ الْحُرُّ مَغْرَمًا

وَلَمْ أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مَهْجَتِي . . . لِأَخْدِمَ مِنْ لَاقِيَتِ لَكِنْ لِأُخْدِمَا

أشقى به غرسًا وأجنيه ذلةً . . . إذا فاتباعُ الجهلِ قد كان أحزماً

وإني لراضٍ عن فتى متعففٍ . . . يروح ويغدو ليس يملك درهماً

يبیتُ يراعي النجمَ من سوءِ حاله . . . ويصبحُ طلقاً ضاحكاً متبسماً

ولا يسألُ المثربين ما بأكفهم . . . ولو ماتَ جوعاً عفاً وتكرماً

فإن قلت: "زندُ العلمِ كاب"، فإنما . . . كبا حين لم نحرُسُ حماه وأظلماً

ولو أن أهلَ العلمِ صانوه صانهم . . . ولو عظموه في النفوسِ لعظماً

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا . . . مُحْيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا

وما كل برقٍ لاحٍ لي يستفزني . . . ولا كل من لاقيتُ أرضاه مُنعماً

ولكن إذا ما اضطرني الضرُّ لم أبت . . . أقلبُ فكري مُنجداً ثم مُتهدماً

إلى أن أرى ما لا أعصُّ بذكره . . . إذا قلتُ قد أسدى إليَّ وأنعماً

